الفردية والحرية في نظر محمود محمد طه

عائشة رضوان رفيق نظيف*

ملخّص

تهدف هذه الورقة إلى بيان نظرية محمود محمد طه في الفردية والحرية، وتوضح رؤية هذا المفكر في كيفية نشأة الإنسان على الأرض فرداً وتعامله مع الطبيعة وبني جنسه. كما تتناول الورقة نظريته في نشوء المجتمعات ودور الله في إرساء إرادة الحياة وظهور العقل، وسعي الإنسان التكاملي في طريقه إلى الرب، فكراً وقولاً وعملاً، للوصول إلى الحرية المطلقة من خلال الحرية التشاركية التي يتحقق فيها الخير للفرد والمجتمع، ليثبت أن الإسلام يوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع.

الكلمات الدالة: الفردية، الحرية، محمود طه.

المقدمة

يعد مفهوما الفردية والحرية من المفاهيم التي لا يمكن تقديم تعريف لها، لأنهما لا يمكن أن يكونا موضوعاً للمعرفة، بل شعور إنساني، ولأنهما كذلك يكونان متمايزين عن الحاجات البيولوجية للإنسان وأسمى منها. لقد حظيت الفردية باهتمام كبير باعتبارها تمثل أساساً للبحث في العلوم الاجتماعية والسياسية. وزاد الاهتمام بالفردية وكذلك بالحرية من خلال الفلسفة الليبرالية، وأصبحت الفردية والحرية القاعدة الأساس التي بنيت عليها حقوق الإنسان منذ صدور الإعلان الدولي لحقوق الإنسان عام 1948م، وما تلاه من عهود دولية بخصوص الفرد الإنساني وحريته (العهود والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان، 2003).

ومما لا شك فيه أن آراء محمود محمد طه قد تأثرت بالظروف في لحظة تاريخية واقعة بين مستقبل لا يمكن التنبؤ بما ستؤول إليه الأمور فيه، ولكن النظر في صياغته ممكن، وماضٍ لا يمكن إعادته أو امتلاكه، كما أن محمود محمد طه تأثر بما اطلع عليه من تراث بشري، فقد ظهر فلاسفة ومفكرون على مر التاريخ الفكري للإنسانية من عالج الظواهر الإنسانية الاجتماعية والسياسية، ووضع نظريات في كيفية تكوين الجماعات البشرية وبين الأسس التي تقوم عليها من أفلاطون (Plato) (ت 347 ق.م) وأرسطو (Aristotle) (ت 322 ق.م) قديماً إلى جون راولز (Johne Rawls) (ت 2002) على سبيل المثال في عصرنا الحاضر.

وقد وضع هؤلاء الفلاسفة نظريات اجتماعية كبرى تبين المبادئ والقواعد التي حفظت على الجماعات البشرية تماسكها، واحتاجت تلك النظريات "إلى وقت طويل لتنتظم داخلها طائفة من الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الخاصة". و"تمتاز كل مرحلة تاريخية لأي مجتمع بوجود مستويات من الفهم تشكل تصورات متكاملة" (جيروم كيغان، 2014) وبرزت في نظريات هؤلاء الفلاسفة مصطلحات تشير إلى نظم ورموز وممارسات تفسر أو تعبر عن تلك الأنماط الاجتماعية منها والمتفردة. ويعود ذلك كله إلى أن ملكة الفكر عند الإنسان ليست سكونية، بل في تغيير مستمر، والناس دائماً يقبلون أفكاراً جديدة تضع كل ما هو قديم موضع تساؤل، ونظراً لتعدد آراء الفلاسفة والمفكرين فقد تكشّف أن كثيراً من المعتقدات التي كانت تعتبر في زمانها معتقدات مقبولة قد ثبت عدم صلاحيتها في زمن آخر، لأن الأفكار الجديدة تتطلب "توفر مجموعة مترابطة من الظروف التاريخية لتكون مهداً لهذه الأفكار" (جيروم كيغان، 2014)، وأن تعاقب الخبرات الإنسانية التي أثرت الفكر

* طالبة دكتوراه، قسم الفلسفة، الجامعة الأردنية.

تاريخ استلام البحث 2016/4/24 وتاريخ قبوله 2016/5/24.

© 2017 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

الإنساني جعلت في الإمكان الاستغناء عن خبرات سابقة عليها بدون أن تنفيها، وهكذا كانت رؤية محمود محمد طه لمستقبل الإسلام، التي قدم فيها نظرية تختلف كثيراً عما سبقها، وضع فيها رأيه في كل ما يحدث حوله وما يتمثله، وحقق السلام الداخلي الذي مكّنه، ولو نظرياً على الأقل، من تجاوز الحاضر واستشراف مستقبل أفضل، ووضع في نظريته رؤية في مواضيع متعددة من بينها الفردية والحرية.

لقد اعتقد محمود محمد طه بفكرة تطور الإنسان الأول عن سلالات متعددة سبقته ومنذ أن "وقف على رجليه لأول مرة واستقبل بعقله البيئة الطبيعية التي عاش فيها ووجدها تزخر بالقوى الهائلة التي تتركب بطريقة تختلف عن تركيبه، وتتصرف بأسلوب لا يستقيم مع تفكيره ومع رغباته، وهي بعد لا تبالي بحياته أو موته" (محمود محمد طه، 2002). وكان دافعه في كل سلوكياته غريزة حفظ البقاء أمام ما كان يهدد حياته سواء من الطبيعة أو من أبناء جنسه، ومن أجل ذلك بدأ "يكيد أصناف الكيد ويحتال لنفسه ألوان الحيل" (محمود محمد طه، 2002).

لقد تفرد محمود محمد طه باعتقاده أن السلالة البشرية الموجودة حاليا لم تكن الأولى، فقد نشأت قبلها سلالات متعددة حتى استقرت الأمور في هذه السلالة، وهذا يعني أن محمود محمد طه اعتقد، وعلى غرار نظرية داروين في النشوء والارتقاء، أن الأشكال الأولى للحياة قد نشأت على الأرض منذ بلايين السنين، وأن سلالات من الموجودات قد نشأت وتطورت حتى ظهرت سلالة البشر الذين تركوا وراءهم ما يوثق خبراتهم وفنونهم ورموزهم ومعتقداتهم، وهو ما يؤكده محمود محمد طه بأن نشأة الإنسان كانت هنا من الأرض وكان تطوره على الأرض، وهذا عنده معنى قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ (سورة الإنسان، آية 1)، ويعني عنده أن الإنسان كان "يتقلب في المستويات الدنيا من الحياة ولم يظهر فيه العقل بعد، وتأول محمود محمد طه لفظة "نبتليه" بأنه إشارة إلى "الصراع في البيئة الطبيعية بين الحي والقوى الصماء، وبينه وبين إخوانه في جنسه" (محمود محمد طه، 2002)، ويؤكد محمود محمد طه دور الله في النشأة التكوينية للإنسان ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (سورة الإنسان، أية2)، وأن في ذلك إشارة إلى أن الله منح الإنسان العقل، (محمود محمد طه، 2002)، ولا بد أن محمود محمد طه اطلع على فحوى النظرية الداروينية الاجتماعية التي تدعي أن الحياة الإنسانية تحكمها مجموعة من القوانين الخاصة بالطبيعة البشرية، وأن الظروف فرضت على البشر التأقلم مع المستجدات، وبذلك تفسر هذه النظرية كيفية نشوء الأعراف والعادات وتطورها. وعلى غرار هذه النظرية نجد محمود محمد طه يؤكد أن الإنسان ومنذ البداية تعامل مع قوى الطبيعة الصماء بالعبادة والمناجزة، وكانت العبادة تزلفاً لهذه القوى بدافع الخوف من سطوتها، "فتذلل لها وتخشّع، وقدم الهدايا وقرب القرابين ورسم مراسيم العبادات" (محمود محمد طه، 2002). أما المناجزة فكانت الإفادة مما هو متاح في الطبيعة نفسها "فاحتال وتفنن في ذلك فبنى البيوت فوق الأشجار وعلى قمم الجبال" (محمود محمد طه، 2002). كما مد قدرته على المناجزة باتخاذ الآلة من فروع الأشجار وقطع الحجارة.

ويذكر محمود محمد طه أن الإنسان بين العبادة والمناجزة غلبت عليه الوحشة من كثرة الأعداء، وتولد لديه شعور بالوحشة والقلق وترسخ في وجدانه أن علاقته بالطبيعة علاقة عداء وخصومه. لكن الرجل يستدرك بقوله "إن الإنسان أثناء مناجزته لبيئته الطبيعية يتطور فهمه لها ويحسن من وسائله في مناجزتها حتى يتم له قهرها وتسخيرها" (محمود محمد طه، 2002). أما عندما يعجز الإنسان عن مناجزة الطبيعة، اعتقد محمود محمد طه أن الفلاسفة رأوا أن الإنسان الأول لجأ إلى "إله يتخيله ليسد به حاجة كحاجة الطفل إلى أب يحميه" (محمود محمد طه، 2002).

يقدم محمود محمد طه نظرية في تطور الإنسان الفرد، فرأى أن الفرد البشري الأول كان "غليظ الطبع، قاسي القلب، بليد الحس، حيواني النزعة" ولم يكن له هم "غير تحصيل شهوة البطن والفرج" (محمود محمد طه، 2002)، ولما كان الإنسان حيواناً اجتماعياً كان لا بد لحصول الاجتماع الإنساني من نشوء العرف، ويؤكد محمود محمد طه أن "المجتمعات البشرية نشأت حول طائفة من الأعراف والعادات" (محمود محمد طه، 2002) التي أسست إلى نشأة القانون، ومن بين الأعراف التي نشأت أول ما نشأت هو العرف الذي ينظم حاجة الإنسان إلى إشباع شهوة البطن والفرج، فكان عرف تحريم نكاح الأقارب ومن ثم تحريم الزنا بمثابة القانون الأول الذي يقوم على تهدئة الغريزة الجنسية، وأصبح من الممكن تساكن الأقارب في بيوت متجاورة

"وكل منهم آمن على زوجته من الآخرين"، وهذا العرف أدى أيضاً إلى الاعتراف بالملكية الفردية، ويؤكد محمود محمد طه أن "التواضع على هذين العرفين هو الذي ينظم السلوك في الجماعة ويصون كيانها" (محمود محمد طه، 2002). ويؤكد محمود محمد طه أن جزاء الخروج على العرف كان "شديداً عنيفاً يفرض الموت على أيسر المخالفات" (محمود محمد طه، 2002) ويعترف بأن هذا التشريع العنيف كان فيه "دحض حرية الفرد في سبيل مصلحة الجماعة" (محمود محمد طه، 2002). وفي رأيه لبثت شريعة العنف زماناً طويلاً وقد تم إبطالها تدريجياً بعد أن تم الانتفاع بها واستنفذت أغراضها، "وأن ما بقي من صور العنف التي لا يزال يتعرض لها الأفراد في المجتمعات المعاصرة فإنها آيلة إلى الزوال" (محمود محمد طه، 2002). ويعتقد محمود محمد طه أن هذا العنف الذي كان يتعرض له الفرد جعل بعض المفكرين الاجتماعيين يعتقدون أن ذلك ناتج عن مبدأ "أن حرية الفرد تتعارض دائماً مع مصلحة الجماعة....، وقد بقيت هذه الشريعة العنيفة في تقييد حرية الفرد في سبيل مصلحة الجماعة معروفة ومعمولاً بها إلى وقت قريب" (محمود محمد طه، 2002). كما يبرر محمود محمد طه حصول المجتمع بالنشأة التكوينية للإنسان الذي خلقه الله ضعيف البنية وذا طفولة طويلة مما اضطره للعيش في جماعات. ومع نشأة المجتمع حظيت الفردية في بعدها الاجتماعي، أي العلاقة بين الفرد والمجتمع، باهتمام كبير وتجلت في السياسة والتشريع والأخلاق والأدب والفلسفات الاجتماعية، بينما بقيت العلاقة بين الفرد والكون على حاشية هذه الاهتمامات، ويحيل محمود محمد طه ذلك إلى ما سماه "غريزة القطيع" التي لم تجعل في إمكاننا أن "نبرز إلى منازل الفرديات" (محمود محمد طه، 2002). إن العلاقة بين الفرد والكون في نظره "أمر عملي يتوقف عليه تحقيق الفردية" (محمود محمد طه، 2002).

لقد اعتقد محمود محمد طه بالتسخير، فالله سيّر البيئة الطبيعية مباشرة لتكون بيئة الحياة، ويؤكد ذلك بقوله "فلما تهيأ المكان في الأرض خلق فيها الحياة وأودع فيها إرادة الحياة" (محمود محمد طه، 2002)، وإرادة الحياة عنده هي تلك القوة التي تعمل بدوافع حب البقاء والاحتفاظ بالحياة وقانون هذه القوة السعي وراء اللذة وتجنب الألم، ولذلك كانت العلاقة بين الإنسان والكون علاقة مناجزة لتحقيق هذين الأمرين.

لقد كان التسيير في نظره إما مباشراً كما هو الحال في مستوى النبات والحيوان، وإما غير مباشر كما هو الحال في تسيير إرادة الحياة، ويبرر محمود محمد طه ذلك بأن إرادة الحياة تتمتع بالحركة التلقائية وهي عنده "الحركة التي يستخدمها الحي في تحصيل قوته والاحتفاظ بحياته والاحتفاظ بنوعه" (محمود محمد طه، 2002). ولما ارتقى الله بالحياة إلى مرتبة الإنسانية زاد على إرادة الحياة عنصراً جديداً هو إرادة الحرية، ومن ورائهما كان التسيير غير مباشر، ونتيجة لذلك، ولأن تدخله في أمر البشر كان لطيفاً ودقيقاً حصل لدى الإنسان وهم الاعتقاد بامتلاك تام لإرادة حرة تمكنّه من الاختيار بين الفعل والترك.

وأدى ذلك، كما يرى محمود محمد طه، إلى صراع بين إرادة الحياة وقانونها "السعي لتحصيل اللذة بكل سبيل، وبين إرادة الحرية وقانونها، "تحصيل اللذة التي لا تتورط في غضب الجماعة ولا في غضب الآلهة" (محمود محمد طه، 2002)، فإذا كانت اللذة لا تنال إلاّ بمخالفة الجماعة، وأمرها هو أمر الآلهة دائماً، تتوجه إرادة الحرية إلى "التخلي عن ابتغاء تلك اللذة في مقابل الحصول على لذة أكبر تتمثل في ثواب الجماعة أو ثواب الآلهة.... وهذا هو الذي أدى إلى دخول القيم في الحياة" (محمود محمد طه، 2002)، سواء كانت قيماً دينية أو قيماً إنسانية خالصة.

لقد اعتقد محمود محمد طه أن العلاقة بين الإنسان والكون كانت مادة التعليم والتعلم منذ بداية ظهور إرادة الحياة وإرادة الحرية، ولأن الإسلام لم يميز بين ما هو ديني وما هو دنيوي كانت طريق الإنسان في معرفة حقيقة هذه العلاقة تتم بالدين أو بالعلم المادي. وهما عنده توأمان يتشابكان في نمو وتطور الفرد والمجتمع، وفي البداية "كان مجال العلم المادي ضيقاً وميدان الدين واسعاً" (محمود محمد طه، 2002). ويرد ذلك إلى أن الإنسان اعتقد أن لكل شيء موجود روحاً، واكتسبت بعض الأشياء عند الإنسان قدسية جعلته يصلي لها وجعل لها إلهاً يعبد، ولكن عندما أخذت الألفة بالأشياء تتسع تم رفع الرهبة من بعض الأشياء والقدسية عن ما كان مقدساً، وبدأت دائرة العلم تتسع و دائرة الدين تتكمش، إلاّ أن ذلك لم يدفع محمود محمد طه إلى الاعتقاد بما زعم به من سماهم المغرورين بالعلم اليوم من أن الدين لم تعد له مكانة في حياة الإنسان المعاصر،

بل اعتقد أن الإسلام لم يعتبر الدنيا دنساً ونظر إلى الكون نظرة روحانية تؤدي إلى تحرير الفرد وتطوير المجتمع، فتصبح الدنيا مجال تحقق ما تصبو إليه الروح.

لقد رأى محمود محمد طه أن اللقاء بين إرادة الحياة وإرادة الحرية أنتج العقل الذي اعتبره محمود محمد طه الابن الشرعي للقاح اللذة والألم وبه "استحق الإنسان الكرامة على ما سواه" (محمود محمد طه، 2002) وجعله أفضل ما أعطي الإنسان لكبح عدوانيته المفرطة وانحرافاته الجنسية التي من شأنها تقويض أساس المجتمع وتهديد الانسجام فيه، ويؤكد أن أنوار العقول حصلت عن الصراع بين إرادة الحياة وإرادة الحرية. وهنا يؤكد الرجل أن الاختلاف بين الإرادتين ليس اختلافاً في النوع، أي ليس اختلافاً في الكيف، بل اختلاف في المقدار، أي اختلاف كمي، مما يعني عنده "أن إرادة الحرية هي الطرف الرفيع الشفاف من إرادة الحياة" (محمود محمد طه، 2002). فإذا كانت إرادة الحياة بمثابة النفس، كانت إرادة الحرية هي الروح. وبذلك يؤكد محمود محمد طه أن الإنسان جسم اذا أخذ فعله في العالم المادي وروح إذا أخذ إلى ماله غاية. وفي هذه المداولة بين الإرادتين يستمر المجتمع البشري ينمو، وينمو معه أعرافه وتقاليده وتشريعه، ويتجدد كل ذلك ليتخذ في مراحله التاريخية صوراً دقيقة وحاسمة، وتصل هذه المراحل عند محمود محمد طه أوجها في ظهور الدين الإسلامي الذي شرّع للفرد والمجتمع وأعطى الفرد الأدوات التي يتمكن من خلالها تحقيق ذاته.

يرى محمود محمد طه "أن الفرد في الإسلام هو الغاية وكل ما عداه وسيلة إليه" (محمود محمد طه، 2002) واعتبر أن الفردية هي جوهر الأمر كله لأنها عنده مدار التكليف والتشريف، والفرد يجب أن لا يتخذ وسيلة إلى غاية وراءه، وإنما هو الغاية التي تؤدي إليه جميع الوسائل، ويستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (سورة مريم،آية 95) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (سورة الأنعام، آية 94).

لقد عدّ محمود محمد طه أن الحرية في الإسلام هي حق لكل فرد، من حيث هو إنسان، تستوي في ذلك المرأة مع الرجل مساواة تامة، ويؤكد أن التكليف والتشريف ينطبق تماماً على الرجال والنساء، والإسلام بتعزيز حرية الفرد إنما يعزز ما هو أصلح للمجتمع ويؤدي إلى الانسجام فيه، لذلك لا يقبل الإسلام أي أمر من شأنه طمس هوية الفرد الإنساني دون تمايز وعلى أي أساس. وبناء على ذلك فإن الأولوية في الإسلام لحقوق الفرد ومن ثم وضع الواجبات عليه. لقد اعتقد محمود محمد طه أن "المساواة بين الرجل والمرأة هي أصل الإسلام، وإنما ميزت بينهما الشريعة لعوامل تلتمس في تطور المجتمع عبر التاريخ". (محمود محمد طه، 2002)، أما الإسلام فقد جعل كل فرد غاية في ذاته لا فرق سواء ذكراً كان أم أنثى.

وطالما كانت الحرية في الإسلام حق لكل فرد، فإن الأصل فيها هو الإطلاق. اعتقد محمود محمد طه أن الإسلام أكد أن الحرية، "من حيث هي، وفي أي مستوى كانت، لا بد أن تكون في حالة إطلاق" (محمود محمد طه، 2002). ورأى أن الحرية حق، لكنه حق يقابله واجب، وهو حسن التصرف فيها، ولا تصبح الحرية محدودة إلا إذا أصبح الحر عاجزاً عن الالتزام بواجبها عندها "تصادر الحرية في الحدود التي عجز عنها" (محمود محمد طه 101)، ويعتبر الحرية المقيدة هي "الحرية المطلقة التي تتناسب مع أهل الأرض بقدر طاقتهم على احتمالها" (محمود محمد طه، 2002)، ولما كان الأصل هو الإطلاق، فإن القيد يكون "لازمة مرحلية تصاحب تطور الفرد من المحدود إلى المطلق" (محمود محمد طه، 2002)، وفي عملية تكاملية ينال فيها الفرد كماله، وبذلك يؤكد أن الإنسان إمكان مفتوح، فليس في الكون شيء منجز منذ البداية.

ويبدو هنا تأثر محمود محمد طه بمعطيات الفلسفة الإسلامية كما بدت في فلسفة الكندي (ت 260هـ/873م) والفارابي (ت 339هـ /950م) ابن سينا (ت 428هـ/1038م) والمتصوفين المسلمين وفلاسفة العرفان الذين رأوا أن الإنسان يسير في مراتب المعرفة إلى حد التشبه بالباري، وهو ما يؤكده محمود محمد طه بتمثل حديث للرسول الكريم يقول فيه "تخلقوا بأخلاق الله، إن ربي على صراط مستقيم" ، ويدعمه بآيات تؤكد اعتقاده أن الإنسان لا حدود لترقيه في سيره من المحدود إلى المطلق، أو من النقص إلى الكمال وأن نهاية الإنسان في مسيره يكمن في كمال الرب، وهذا هو الكمال المطلق، ويذكّر بالآية الكريمة ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ (سورة النجم، آية42).

ويضع محمود محمد طه علم النفس في خدمة نظريته هذه، فرأى أن الإنسان بالضرورة التكوينية أناني وكماله يكمن في هذه

النشأة الأنانية. والأنانية عنده على مستويين، في المستوى الأول الأنانية الضيقة ويسميها الأنانية السافلة، الجاهلة، وفي المستوى الثاني الأنانية الواسعة المتسامية، العاقلة، ويرى أن الأنانية العاقلة هي التي توازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، وهي عنده التطبيق العملي للحديث الشريف " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، ولذلك أكد محمود محمد طه أن الإسلام استطاع أن يفض التعارض بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة، ولاعتقاده بأن البشر لا زال في مستوى الأنانية الجاهلة كان لا بد من تقييد حرية الفرد لمصلحة المجتمع.

ويميز محمود محمد طه بين مستويين لحرية الفرد في الإسلام، الأول مستوى الحرية المقيدة، وفي هذا المستوى "يفكر الفرد كما يريد ويقول كما يفكر ويعمل كما يقول" (محمود محمد طه، 2002)، بشرط أن لا تتعدى ممارسته لحريته على حريات الآخرين، والثاني مستوى الحرية المطلقة، وفيه "يفكر الفرد كما يريد، ويقول كما يفكر، ويعمل كما يقول، وتكون نتيجة ممارسته لكل ذلك خيراً وبراً بالناس" فتكون مصلحة الفرد الحقيقية في إنجاز كل ما هو خير وفي ذلك مصلحة الجماعة أيضاً (محمود محمد طه، 2002) وأرى هنا تطابقاً بين رؤية محمود محمد طه وآدم سميث الذي اعتقد أن "الجميع سيحققون مصالحهم ويلبون حاجاتهم لو أن كل فرد من أفراد المجتمع سعى إلى تحقيق مصلحته الخاصة" (مقتبس في جيروم كيغان،2014). ويبدو واضحاً أيضاً هنا تأثره بقول زرادشت الذي جعل الحكمة والخير الإنساني في "الفكر الحسن والقول الحسن والفعل الحسن" (سلمان البدور، الزرادشتية،1988) وبقول الكندي "غاية الفيلسوف في علمه العلم بالحق وفي عمله العمل بالحق" (مقتبس في سلمان البدور، العقل والفعل في الفلسفة الإسلامية (2006)، ويضع محمود محمد طه العدل في أدنى مراتب الحرية المقيدة والعفو في أدنى مراتب الحرية المطلقة. ويرى أن هذين المستويين من حرية الفرد متداخلان، بحيث تكون الأولى إعداداً للثانية، التي لا يبلغها الفرد إلاّ "بالتمرس بالمجهود الفردي في تربية النفس ومراقبتها ومحاسبتها وترويضها لتصبح موكلة بالتجديد، كلفة بالإحسان (محمود محمد طه، 2002)، وفي هذا مرة أخرى إطلالة على الفلسفة الإسلامية وبخاصة فلسفة الفارابي وابن سينا في كيفية تحصيل السعادة.

إن المراقبة تعني عند محمود محمد طه "الحضور مع الله دائماً فكراً وقولاً وعملاً والمحاسبة تعني استدراك ما فلت من المراقبة" (محمود محمد طه، 2002). ورأى أن للحرية الفردية المطلقة ثمن، والثمن هو "حرية التصرف في حرية الضمير وحرية القول وحرية العمل"، (محمود محمد طه، 2002)، وقد جاء الإسلام بحسب رأيه بعباداته وتشريعه ليبلغ بالفرد، في ترقيه، إلى هذه المرتبة. ولقد حقق الإسلام بفضل عقيدة التوحيد في تشريعاته التوازن بين حاجة الفرد إلى الحرية المطلقة وحاجة الجماعة إلى العدالة الاجتماعية الشاملة، ليصبح تنظيم الجماعة وسيلة إلى الحرية الفردية، ولذلك جاء الإسلام بتشريع المعاملات على مستوى الجماعة وتشريع العبادات على مستوى الفرد.

في التوحيد يعود الناس إلى الله، كما يقول، وهذه العودة تكون "بتقريب الصفات من الصفات، تقريب صفات المحدود (الإنسان) من صفات المطلق (الله)" (محمود محمد طه، 2002) وهذا يعني أن المتناهي يستوعب اللامتناهي داخله، وبعبارة الكندي التشبه بالباري، وبذلك يتحقق للإنسان الفرد الحرية المطلقة، ويتحقق مفهوم الإنسان الكامل، الذي رأى فيه محمود محمد طه عودة نبوية، عودة خلاّقة تؤسس لأفق إنساني رفيع، أفق يوجه قوى الحياة توجيهاً جديداً.

ولما كانت هذه الحرية الفردية، وبناء على رؤية الإسلام، مطلقة، إلاّ أن محمود محمد طه خشي أن تتحول الحرية المطلقة إلى فوضى اجتماعية تهدد تماسك الجماعة، ولذلك فإنه ولحماية مصلحة المجتمع والفرد رأى أن هذه الحرية يجب أن تكون مقيدة، وأن القيود على الحرية يجب أن تكون بموجب قانون، أطلق عليه اسم القانون الدستوري، الذي عرفه بأنه مجموعة القواعد الحاكمة للفرد والجماعة وتملك القدرة على التوفيق بين حاجة الفرد إلى الحرية المطلقة، وحاجة الجماعة إلى العدالة الاجتماعية الشاملة (محمود محمد طه، 2002)، وبذلك يؤكد محمود محمد طه المساواة بين الأفراد، لا فرق، رجالاً ونساءً، على اعتبار أن الفردية تحقق المساواة والعدالة، وإني أرى في أقواله أنه كان يتطلع إلى يوم يمنح فيه القانون الحرية الفردية لكل مواطني بلاده كما منح الله الحرية نفسها للإنسان من حيث هو إنسان، وتبدو لي الفردية في نظره طريقة للتفكير باعتبارها قوة تدفع الناس للعمل معاً لتحقيق غايات مشتركة تكون في أصلها اهتمامات ذاتية يتولى الأفراد زمام أمورهم الحياتية

بأنفسهم، ولكن في المجموع يكون فيها خير وبر بالآخرين، إن ما يدعو إليه محمود محمد طه هو المساواة بين المواطنين وأن يكونوا أحراراً. ولما كان أي فرد يصعب عليه الدفاع عن حريته في مواجهة قوى لا يستطيع مقاومتها، كان الضمان الوحيد للحرية الفردية هو مجموع الإرادات الحرة أو ما يُطلق عليه "الحرية التشاركية"، وفيها يستطيع الأفراد العمل بحرية وفي الوقت نفسه يحترمون حقوق الآخرين، وبخاصة أن السياق الاجتماعي يحدد في كثير من الأحيان طبيعة سلوكيات الفرد المحتملة. وحتى تتحقق هذه الحرية لا بد من الوصول إلى رؤية في السلطة، لذلك لم يكتف محمود محمد طه بإبداء رؤية نظرية، بل مارس دوراً في الحياة العامة فأسس الحزب الجمهوري، بانياً رؤيته على أساس أن النظام الجمهوري هو صورة الحكم التي لا تفرق بين المواطنين وأنه النظام الذي يمكّن كل أعضاء المجتمع المشاركة فيه ويقوم على أساس الحرية التشاركية التي لا تميز بين الأفراد بناءً على الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي، وتطبق المعنى الواسع للأخلاق والقيم التي تشمل كل أفراد المجتمع. وبذلك أدرك محمود محمد طه ما يختلج في فكر الإنسان من أن للمساواة معنى يدرأ التمييز بين الأفراد، لأن التمييز في المساواة يؤدي إلى عدم المساواة في الحرية.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

القرآن الكريم.

البدور، سلمان، 2006، العقل والفعل في الفلسفة الإسلامية، **دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان.**

البدور، سلمان، 1988، مادة الزرادشتية، الموسوعة الفلسفية العربية، **منشورات معهد الإنماء العربي**، بيروت.

طه، محمود محمد، 2002، نحو مشروع مستقبلي للإسلام، يشمل ثلاثة من الأعمال الأساسية لمحمود محمد طه هي: الرسالة الثانية من الإسلام، ورسالة الصلاة، وتطوير شريعة الأحوال الشخصية، **نشر المركز الثقافي العربي، بيروت، ودار قرطاس، الكويت.**

كيغان، جيروم، 2014، ترجمة د. صديق محمد جوهر، الثقافات الثلاث، **المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.**

المراجع الأجنبية

Danish Institute for Human Rights, Copenhagen. Global and Regional Documents of Human Rights. 2003.

Mahmood Mohammad Taha's Theory On Individualism and Freedom

Aysheh Radwan Rafiq Natheif *

ABSTRACT

This paper deals with Mahmood Mohammad Taha's theory on individualism and freedom. It explains his views concerning the rise of man on earth as individual and his relationship with nature and human beings. The paper tackles Taha's theory of the creation of society, the role of God in establishing the volition of life, the rise of mind and the man endeavor to his perfection on his way to God, i.e perfect thought, perfect say and perfect action, which enables man to obtain his absolute freedom through mutual liberty by which the good for individual and society is to be achieved.

Keywords: Tahas' Theory, Individualism, Freedom.

* PhD Candidate, Department of Philosophy, The University of Jordan.

Received on 24/4/2016 and Accepted for Publication on 24/5/2016.